د.سميّة محمّد طليس

كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة/الجامعة اللّبنانيّة

Email: somaya.tlais@gmail.com

شعريّة العالم عند محمّد علي شمس الدّين بين جدليّة الرّؤية التّجاوزيّة، والتّأسيس لما بعد بعد الحداثة

د.سميّة محمّد طليس[1]/ كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة/الجامعة اللّبنانيّة

The title of the research: The Poetics of the World according to Muhammad Ali Shams Al-Din between the dialectic of the transcendental vision, and the establishment of post-modernism.

- Dr. Somaya Mohammad Tlais/ Faculty of Arts and Human Sciences/ Lebanese University/ Lebanon

Research Focus: literary, critical, rhetorical studies and arguments

محور البحث: الدّراسات الأدبيّة والنّقديّة والبلاغيّة والحِجاج

ملخّص البحث:

الشّعر هو حداثة الرّؤية إلى العالم المرجعيّ، وهو سبيل للتّخفيف من وطأة العالم القاتم والمهدّد بالتّغيير دومًا، لذا يظلُّ في دوّامة تحوّل للتّأسيس لمرحلة تجاوزيّة يتمرّد فيها وعي الشّاعر على طرائقه المعتادة في الإدراك. وعليه، تتناول هذه الدّراسة تجربة محمّد علي شمس الدّين للكشف عن فرادة رؤيته ومرتكزاتها.

إشكاليّةُ البحث:

كيفيّة تجلّي الرّؤية الحداثيّة التّجاوزيّة إلى العالم المرجعيّ عبر فرادة اللّغة.

1 - د.سميّة محمّد طليس، أستاذة في كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة/الجامعة اللّبنانيّة، لها بحوث منشورة في مجلات علمية محكَّمة، ولها مشاركات علمية في المؤتمرات العلمية والندوات.

أسئلة البحث:

1- ما هي مكوّنات رؤية شمس الدّين؟ وهل هي يقينيّة، أم رهينة التّغيّرات الواقعيّة والنّفسيّة والفكريّة؟

2-هل الصّور الشّعريّة مستفزّة تعكس رؤية جديدة إلى العالم، أم أنّها مكرورة قائمة على المماثلة الببّغائيّة لتجارب الكبار؟

3-هل انحازَ شمس الدّين إلى الموروث العربيّ بحداثات الماضي والحديث والمعاصر، وحاوره؟ أم انحاز أيضًا إلى الموروث الغربيّ ؟

4-ما الهموم الّتي حكمت رؤية شمس الدّين؟ وهل تخترق الهمَّ الإنسانيّ إلى الوجوديّ؟

أهداف البحث:

-الكشف عن أسس تكوين الوعي الحداثيّ في شعريّة محمّد علي شمس الدّين.

-تبيان تمايز علامات الهويّة وأولويّة السّؤال في نصّه الشّعريّ

أهمّيّة البحث:

تكمن أهمّيّة هذه الدّراسة في تسليط الضّوء على زمن وعي شمس الدّين التّجاوزيّ الّذي عكس الأنا المتعالية بعلامات هويّة استثنائيّة، جعلت تجربة شمس الدّين الشّعريّة تؤسّس لما بعد بعد الحداثة.

منهج البحث:

المنهج المعتمد هو المنهج الثّقافيّ، ويقوم على نظريّة الكشف بقاعدتها الثّلاثيّة: الرّؤية، والعالم المرجعيّ، واللّغة.

-الكلمات المفتاحيّة: الحداثة، الرّؤية، العالم المرجعيّ، الكشف...

Research Summary:

Poetry is the novelty of the vision to the world of reference, and it is a way to alleviate the burden of the gloomy world that is always threatened with change, so it remains in a vortex of transformation to establish a transcendental stage in which the poet's consciousness rebels against his usual methods of perception. Accordingly, this study deals with the experience of Mohammad Ali Shams al-Din to reveal the uniqueness of his poetic vision and its foundations.

Research Problem:

How the transcendent modernist vision is manifested to the world of reference through the uniqueness of language.

Research Questions:

1- What are the components of Shams al-Din's vision? Is it certainty, or hostage to realistic, psychological and intellectual changes?

2- Are the poetic images provocative and reflect a new vision of the world, or are they repetitions based on the parrot analogy of the experiences of adults?

3- Did Shams El-Din align himself with the Arab heritage, with its past, modern and contemporary events, and dialogue with it? Or siding also with the Western heritage?

4- What are the concerns that governed the vision of Shams Al-Din? Do you transcend human concern to existential?

Research Aims:
-Disclosure of the foundations of the formation of modernist consciousness in the poetry of Mohammad Ali Shams al-Din.
Explaining the differentiation of identity signs and the priority of the question in his poetic text.
Research Importance:
The importance of this study lies in shedding light on the time of Shams al-Din's transcendental awareness, which reflected the transcendent ego with exceptional identity signs, which made Shams al-Din's poetic experience the foundation for post-modernity.
Research Methodology:
The approved curriculum is the cultural one, and it is based on the theory of revelation with its triple base: vision, the reference world, and language.
Keywords: modernity, vision, reference world, revelation...

مقدّمة:

شهدَتِ المرحلةُ التّاريخيّةُ الحديثةُ محاولاتٍ جادّةً لتأسيس بِنى حداثيّةٍ تستجيبُ للحياةِ بتطوّراتِها .وإنَّ الشّعرَ منَ البِنى الفكريّةِ الّتي كانَ لزامًا أنْ يطولَها التّحوّلُ، وبما أنَّه سبيلٌ للتّخفيفِ منْ وطأةِ العالمِ القاتمِ والمهدَّدِ بالتّغييرِ دومًا، فهذا يعني أنَّه سيظلُّ في دوّامةِ تحوّلٍ لِتمخُّضِهِ عنْ آليّاتٍ فكريَّةٍ يتوجَّبُ تناميها ثقافيًّا بلا مُستقَرٍّ .وعليه، فإنَّ محاولاتِ النّهوضِ شعريًّا :تنظيرًا وخلقًا إبداعيًّا، في المرحلةِ الممتدّةِ من عصرِ النّهضة حتّى العقد السّابع منَ القرنِ العشريْن، لم تكن كافية _على أهمّيّة إنجازها _للتّأسيس لمرحلةٍ تجاوزيّة في الشّعر العربيّ، بفعلِ التّحدّيات الّتي واجهتها والّتي لم يكشفها إلّا الجدل النّقديّ الذّي واكب تلكَ الحركة، وحدّد قضاياها، بدءًا منْ حركةِ الإحياءِ بمراحِلِها، مرورًا بالإنجازاتِ والتّحوّلاتِ الإصلاحيّةِ الّتي قادتْها حركةُ التّجديدِ في الشّعرِ العربيّ المعاصرِ، والّتي كانَ فيها لشعراءِ المستقبلِ آنذاك محاولاتٌ تجديديّةٌ مُتأثّريْنَ بالمذاهبِ الشّعريّةِ الغربيّةِ، وصولًا إلى الحركةِ الثّوريّةِ التّغييريّة الجذريّةِ الّتي أسَّسَتْ بداياتِ الشّعرِ الحديثِ، مُشَكِّلةً صدمةً مقرونةً بمسألةِ تنازُعِ الرّيادةِ بين السّيّابِ ونازكِ الملائكة وعبد الوهّابِ البيّاتيّ الّذين كانوا يدركون "ضخامَةَ المهمّةِ وحدودِ إمكاناتها"، حركة سعَتْ ل"بناءٍ فنّيٍّ جديدٍ واتّجاهٍ واقعيٍّ جديدٍ"، بحثًا عنِ التّميُّزِ شكلًا ومضمونًا .

وبمعزل عن مدى تحقّق غاية تلكَ الحركة، فإنَّ إسهاماتها مع ما سبقها، وما قدّمَته "عصبة الأدب العامليّ "من إضافاتٍ ساندَت في تطوّرِ الشّعر العربيّ الحديْث، من حيْث المضمون المقرون بالنّقد النّزيه، مهّد للظّاهرةِ الشّعريّةِ الّتي عُرِفَتْ باسم" شعراء الجنوب" اللّبنانيّ، وهيّ حركة فكريّة تجاوزيّة سيّرها قلق الرّؤية الّذي اشتدّ وقعه ليتمظهر تيّارًا أدبيًّا تحكمه همومٌ وقناعاتٌ وتوجّهاتٌ فلسفيّة، عدّلتِ المشهد الّذي تنامَتْ فيه ملامح الحداثة العربيّة في الشّعر، في مرحلة الخمسينات وما تلاها، الّتي توالَتْ تجلّياتُها وفق الخصوصيّة الثّقافيّة والتّاريخيّة لكلّ قطر عربيّ، لتكون الانعطافة التّحوّليّة بعد كارثة العام 1967، وهزيمة الحلف العربيّ الثّلاثيّ أمام العدوّ الإسرائيليّ، وذلكَ عبر الصّوت الشّبابيّ الفدائيّ اللّبنانيّ الجنوبيّ؛ فلقد أقصى "شعراء الجنوب" هدأة العقل، وشرعوا يثورون عبر مضامين

الشّعر، والنّسق الطّباعيّ للقصيدة، على كلّ تنميط يحدّ من ثورة وعيهم على الأبنية الفكريّة الّتي تتقادم كلّما ارتقت ثقافة الشّاعر. كانوا يرتحلون عن أسر الواقع وتحدّياته وأزماته ليس هربًا، بل ليعودوا إليه بحرّيّة غير مؤطّرة، تساندهم في التّحديق بقبح الواقع عبر الرّؤية المشرّعةِ على المستقبل المحمّل بالأمل الّذي يتوجّب أن يظلّ في دائرة الإمكان ولا يحين، لأنّه يُبقي القصيدة حيّةً مفتوحةً على الآماد، ولا ينتهي مشروعُها.

إنّ "شعراء الجنوب"، الجيل الجديد الّذي يعقب جيل روّاد قصيدة التّفعيلة، محمّد علي شمس الدّين، وشوقي بزيع، ومحمّد زينو شومان، وحسن العبدالله، ومحمّد العبدالله، وجودَتْ فخر الدّين، والياس لحّود وغيرهم... وعلى الرّغم من فرادةِ رؤية كلّ منهم، تعالى صوتهم بروحيّة المقاومة الوطنيّة، والفكر اليساريّ المُناضل، على وقع التّراجيديا أو الفجائع الطّالعة من أرض الجنوب ووجعه ومعاناة أهله مآسي الحروب الإسرائيليّة. تعالى صوتهم محمّلًا بهمّ فلسطين، والانتماء والهُويّة العربيّة، لمواجهة الإبادة الّتي شاطرتها كثافةُ التّشريد والأحداث المأسويّة المتلاحقة الّتي شكّلَتْ تكثيفًا للتّاريخ في ظلِّ المأزق الزّمانيّ والمكانيّ اللّبنانيّ والفلسطينيّ. لقد تحوّل صوت هؤلاء الشّعراء إلى فتيل سعّر الصّراع الثّقافيّ الرّؤيويّ بين الحديث والحديث بما يماشي مسيرة الحداثة الشّعريّة، والتهاب الجرح العربيّ، وهو ما جعل التّحوّل مُذهلًا في القصيدة، الّتي أسّسَتْ لرؤى جديدة حداثيّة تجاوزيّة. إنّ "شعراءالجنوب" كانوا يعاصرونَ قضايا عالمٍ حديثٍ ضمن قالب مجتمعٍ قديمٍ، ويصدرُون عنها إبداعًا يتلاءمُ مع قضايا الوطنِ والمجتمعِ بعامّةٍ، وليسَ مع قضايا شريحةٍ مثقّفةٍ فيه. وقد دفع ذاكَ التّحوّل الحداثة الشّعريّة المعاصرة لتكون بخصوصيّة فريدة، بعدَ التّأسيس لزمن الوعي التّنويريّ التّجاوزيّ.

وفي سياق هذه التّغيّرات غير الضّيّق، تستوقفُنا تجربةُ محمّد علي شمسِ الدّينِ الشّعريّة، بوصفه شاعرًا نخبويًّا من الجيل اللّاحق للرّوّاد، ومن أبرز رموز الشّعر العربيّ الحديث بخصوصيّة رؤيته المزدوجة بين الشّعريّة والنّقديّة الصّادرة في كتاب؛ فقد كانت مغامرته الشّعريّة التّخيليّة غير مكرورة، وهو ما جعلها محطّ اهتمام النّقّاد العرب والأجانب لأنّها تشرّع آفاق التّأويل الّتي لا تُحدُّ، خصوصًا مع اتّساع الرّؤية دومًا المقرون بتنامي ثقافة الشّاعر بدءًا من ديوانه "قصائد مهرّبة إلى حبيبتي آسيا" 1975، مرورًا بما تبعه من نتاجات تحديدًا "غيم لأحلام الملك المخلوع "1977، و"الغيوم الّتي في الضّواحي" 2006، وهما موضع اهتمامنا، وصولًا إلى ديوانه الصّادر بعد وفاته " خدوشٌ على التّاج"، وقد نُشرت حول هذه الدّواوين عشرات الدّراسات الأكاديميّة والمقالات بفعل استفزازها الجاذب إيجابًا. ومن المعلوم أنّ "الكاتب الّذي يكتب، إنّما يكتب باللّغة ما مكّنته ثقافته أن يراه من هذ الجانب أو ذاك من جوانب العالم"[1]، وتلك الثّقافة على اتّصال بالطّبيعة، تتولّد عنها، والأدب " تعامل حيويٌّ مع الطّبيعةِ...لا يشهد ولادته إلّا من داخل الثّقافة المتوالدة عنها"[2]، وتأتي

[1] - علي مهدي زيتون، المنهجُ الثّقافيّ ونظريّةُ الكشف ، سوريا، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، ط1، 2021، ص35.
[2] -م.ن، ص35-36.

المحصّلة بقاء عين الأديب المنطلقة من ثقافته، وما استوعبته عن العالم أسيرة ذاك الاستيعاب من ناحية، مع محاولات الإفلات منه من ناحية ثانية[1]، فعلى "الشّاعر أن يخلق أبعادًا جديدة تتيح استمرار الأسئلة، أيْ تتيحُ نشوء طرق جديدة في البحث، وعلى الشّاعر الرّياديّ أن يمارس الكشف"[2] لتحقيق الفرادة والخصوصيّة. وعليه، سأتناول تجربة شمس الدّين الشّعريّة، على ضوء" المنهج الثّقافيّ " بوصفه توجّهًا حداثيًّا في النّقد بنظريّته الكشفيّة، وفقَ نقطتينِ أساسيّتيْن: الأولى تكشفُ عن أسُسِ تكوين الوعي الحداثيّ في شعريّة شمس الدّين، والثّانية تبيّنُ تمايزَ علاماتِ الهويّةِ وأولويّةِ السّؤالِ لديه عن غيره من مجايليه .والجدير بالذّكر أنّ المنهج الثّقافيّ بنظريّة الكشف يتخطّى نظريّة الانعكاس الّتي تجد الأدب انعكاسًا للعالم المرجعيّ، ونظريّة الانكسار الّتي ترى الأدب تعديلًا للعالم المرجعيّ؛ وتقتضي نظريّة الكشف فيه "قاعدة ثلاثيّة في العمل: الرّؤية رؤية الأديب أو الشّاعر المرتكزة إلى ثقافته، وفاعليّتها في قناعاته وهمومه واهتماماته، والعالم المرجعيّ المتعدّد الأبعاد... وخصوصيّة لغويّة التقت خصوصيّة رؤيويّة لتقدّما الجماليّة الأدبيّة"[3].

أ-أسُس تكوين الوعي الحداثيّ في شعريّة شمس الدّين:

إنَّ الشّعر صوت الذّات القلقة، هو حداثة الرّؤية في علاقتها بالعالم المرجعيّ المتعيّن الّذي يحياه المُبدع في جوانبه السّالبة والإيجابيّة، وذلكَ للارتقاء بأناه، عبر الخطاب الشّعريّ، من شروط الضّرورة إلى آفاق الحرّيّة والجرأة المستندتيْن إلى العقلانيّة الّتي حدَتْ بأبي تمّام إلى وصف الشّعر بأنّه" صوبُ العقول"، وعليه ينطقُ الشّاعرُ بما يستأثر به، بالشّعر الّذي يشكّلُ كشفًا عمَّا لا يمكنُ الكشفُ عنهُ إلّا به. والشّعر إيقاع على وقع الألم، تتوازى إيحاءاته بين الرّوحيّ والمجازيّ، وبين اللّاوعي المخصّب بالرّغباتِ المقموعةِ والوعي التّجاوزيّ الّذي يساندُ الذّات في تمرّدها على واقعها، ومواجهته بأدوات معرفيّة حداثيّة، ويُحيلُ المكبوتات إلى إبداعٍ يتراءى لنا عند شمس الدّين ثورةً تغييريّةً صاغَتْ ملمحًا حداثيّا يجعلُ التّعامل النّقديّ معه في موضع حساسيّة ومخاطرة تستوجبان جرأةً على وقع التّحدّي، لأنَّ صعوبةَ النّقد تأتي ممّا هو أعمقُ من" الكلام على الكلام الّذي يدور على نفسِه، ويلتبسُ بعضُهُ ببعضِهِ، ويقومُ على بلاغةِ التّأويلِ الّتي تحتاجُ تدبّرًا وتصفُّحًا ليتعزّزَ التّفاضلُ والجدلُ" كما يرى أبو حيّانِ التّوحيديّ في الإمتاعِ والمؤانسة؛ إنَّها تأتي" من ذلكَ اللّيلِ العميقِ الكثيفِ الّذي يمشي الشّعرُ فيه، وهوَ يبحثُ عن الحقيقةِ "كما يقول إليوت.

وعليه أودعَ شمسُ الدّين شعريّةَ العالم في نصّه، لئلّا تنكفئَ رؤيتُه بين" جدليّة الخفاء والتّجلّي"، لأنّها في دوّامة تحوّل بفعل تتابع إبداعه الشّعريّ عبر زمن وعيه التّنويريّ التّجاوزيّ، وتنوّع استجاباته للمتغيّرات التّاريخيّة، الإبداع النّاطق بوعي ضدّيّ أو نقضيّ متقدّم هو من الشّروط الملازمة للحداثة، إذ تكون اللّحظة لحظة معرفيّة تبدو فيها أنا الشّاعر غير واثقة من شيء، من الإجابات السّابقة والقناعات، ومُعدلة عن النّقل والتّقليد والإجابات

---

[1] -م.ن، ص36.

[2] - عبدالمجيد زراقط، الحداثة في النّقد الأدبيّ المُعاصر ، بيروت، دار الحرف العربيّ للطّباعةِ والنّشر والتّوزيع، ط 1،1991 ، ص94.

[3] -علي مهدي زيتون، المنهجُ الثّقافيّ ونظريّةُ الكشف ، ص9.

الجاهزة، أو اليقين بالمعرفة المطلقة الّتي لا تُنتقد، وهنا يتضاعف القلق، وصورة الواقع الرّماديّة، ومأزق الهويّة، وعلى وقع ذلكَ تنقلبُ صور العالم المرجعيّ إلى مجاز منْ هذا القبيل:

يا قيصرُ منْ يؤويكَ إذا امتشقَ الفقراءُ سواعدَهم؟

وأتوا من زنزاناتِ الوطن المسفوح

يجرونَ إليك نساء كعويل الصّحراء

وألويةٍ حمراء

وأطفالًا ممتشقِيْنَ بنادقهم في المهد

ومنحدريْنَ من الظّلمات

وخيّمَ حول القصرِ دمُ الآتين؟[1]

إنَّ" القيصرَ "رمزٌ تاريخيّ قياديٌّ مدينيّ بامتياز، لكنَّ حضورَهُ لا يُجسّدُ الأبعادَ المؤسّسة على تحوّلات" الثّورة "قرينة تحوّلات" الثّائر" المقبل على تجاوز العزلة بالانفتاحِ على الآخر لتعزيز التّنوّع الفكريّ والثّقافيّ والماديّ والرّوحيّ، أو الانطلاق نحوَ السّلميّة المحقّقة الانبعاث الموازي بينَ عالم ذات الشّاعر الدّاخليّ والواقع المرجعيّ المدينيّ، بعيدًا من المراوغة أو التّغريب. إنَّهُ رمزٌ موازٍ للعبة المصير المقرون بالهموم السّياسيّة والاجتماعيّة، والهمّ الطّبقيّ" الفقراء" الّذي لا ينفصل عن المنظور العرقيّ والعنصريّ، بعيدًا من الإيمان الرّاسخ بوحدة الجنس البشريّ. إنّ القيصر رمزٌ مقرونٌ بفرط الجنون والتّفنُّن في الإجهاز على الآخرين (الأبرياء والأطفال والمساكين) ليغدو ذلكَ سبيلًا لإدخالهم في الظّلام الّذي هو من الشّروط اللّازمة لتحصين العدوّ عزلَتَهُ، بعدَ تطويقِ الجنوبيّين، وممارسة التّغريب الّذي فرض عزلتهم مع المحيط والعالم. وهنا يظهر الاختلال العميق _ بينَ زمن الجنوبيّين وزمن العدوّ الإسرائيليّ (المرحلة التّاريخيّة) - الّذي جعل العلاقة تقاطبيّة حادّة بينَ واقعيْن مرجعيّين؛ واقع الجنوبيّ، وواقع العدوّ، بفعل الانقسام الفكريّ والدّينيّ والثقافيّ والعقائديّ... وهذا الاختلال حاجة مُلحّة لافتراق الجنوبيّين عن الآخر (العدوّ)، بعقيدته السّائدة على العدائيّة والتّعالي، وذلكَ بغية تأمّل الذّات بأحوالها، وبما تحملُ من ذاكرةٍ عربيّةٍ، لتكون اللّحظةُ لحظةً معرفيّةً تُدركُ فيها تلكَ الذّاتُ حقيقةَ مأزقها بين أن تكون متماسكةً ومثبتة الوجود، وبين الرّضوخ للانحلال والعدميّة .

إنَّ الهموم الّتي تضغَطُ على وجدان تلكَ الذّات -وتُضاعف وتيرة القلق المُتمايز بتعقيداته وتنوّعاته وعمقه عمّا عداه من قلق ساد حياة الجنوبيّ من سابق _فعطّلتْ رؤية شمس الدّين لحملِ أعباء تلكَ المرحلة عبر قراءة العالم قراءة جديدةً، وفق خصوصيّةٍ لغويّةٍ، وتلكَ الرّؤية

[1] - محمّد علي شمس الدّين، الأعمال الشّعريّة (غيم لأحلام الملك المخلوع "1977")، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدّراساتِ والنّشر، ط1، ج1، 2009، ص128.

على صلة وثيقةٍ بصحوة الأنا الجنوبيّة الّتي لن تكونَ إلّا إذا حانَ زمنُ وعيها الّذي يعوّل عليه الشّاعر، نتيجة الرّغبة في الارتحالِ من زمن مأزومٍ مُحاط بالظُّلمةِ المُكثّفةِ الّتي تؤسّس لإلغاء حضور أنا الشّاعر نتيجة إقصاء حضور الجماعة، فالشّاعر(الفرد) جزءٌ منَ الجماعة، وتُقفلُ على المشهد بعبء الهمّ الوطنيّ المؤرّق بقضايا إنسانيّة تتجاذبها التّناقضات :الحرّيّة / العبوديّة، العدل /الظّلم، الاستقلال /الاحتلال، الصّمود /التّغريب، الوطن /المنفى ...ولا شكَّ أنَّ انهزام الذّات الجنوبيّة قياسًا على سُلّم القيم لدى العدوُّ يعني النّقيض، فالعدوّ هو المنهزم قياسًا على البُعد الإنسانيّ. وإنَّ شمس الدّين يقرأ العزلةَ مؤشّر حياة، والنّبذَ فعل انبعاث، لأنّه يخزن أبعاد التّحوّل ضمن دائرة الضّوء الّذي لم ينطفئ في الذّات الجنوبيّة الجمعيّة، فأسلوب الشّرط القائم على التّقديم والتّأخير الوارد في سياق استفهاميّ " يا قيصرُ منْ يؤويكَ إذا امتشقَ الفقراءُ سواعدَهم؟ "ينمّ عن الإيمان اليقينيّ بالتّحولّ الإيجابيّ الحتميّ المؤكّد الّذي سيكون بالارتكاز على وحدة الجنوبيّين الّتي سيجتازون عبرها المناخ الممزّق، ولن يكون التّحوّل إسقاطًا، لأنّ تثويره رهن وعي الذّات الجنوبيّة المرتبط بالأرق المتضاعف بفعل الوضعيّة الّتي وصل إليها مأزق هويّتها. وسؤال" من يؤويك...؟ "لم يشرّع للاستعلام، وتعداد الاحتمالات، بل هو إشارة جليّة إلى المحنة المنبنية على انعدام الأفق أمام العدوّ في لحظة التّحوّل الّذي يراه الشّاعر حقيقة آتية، ففضاء العدوّ سيحاط بالظّلمة الّتي لن يحملها أحد وزرًا عنه، أو ينغمس في المأزق الإنسانيّ الّذي أسّس له .

ومن المؤكّد أنّ مأزق الوطن المسفوح(الجنوب) بأبنائه ونسائه وأطفاله، والّذي كان بفعل النّقص الّذي صنعه الآخر، أسهم في تحوّل وطن الشّاعر إلى أسئلة مؤرّقة لا تثمر هزيمة، بل كانت أفقًا للمراهنة على النّساء اللّواتي ينجبن من سيحمل همّ الانتماء. وليسَ الإنجابُ، في دائرة مغلقة يحوطها الموت، تكريسًا لثقافة الموت، بل هو وعي لضرورة الاستعانة بالموت لمواجهة الموت، فالعدميّة تُستتبع بالخلاص والقيامة، واللّيل يتبعه النّهار. من هنا يخلق الشّاعر توازنًا عبر رؤيته الحداثيّة، الّتي تمثّل بعمق ثقافة العصر، فيوفّق بين وعي الذّات الجنوبيّة ونهوضها من ناحية، وبين الحدِّ من جموح عدوانيّة الآخر الّذي تحقّ فيه مقولة سارتر " الآخرُ هوَ الجحيم"[1]، الآخر الّذي مارس ثقافته بعقيدته العدائيّة الإقصائيّة، لتنجلي رؤية الشّاعر المرتكزة على ثقافة الإيمان بإنسانيّة الإنسان، وعلى الهمّ الوطنيّ الّذي يستوجب مجابهة القبح الآتي من العدوّ، وتقييده على الرّغم من فائض القوّة والهمجيّة، ليشتدّ الصّراع إيذانًا بقرب الولادة الّتي ستعبر ظلام الرّحم المكان المغرّب إلى الحياة، وجه البقاء، للالتصاق بالجوهر، بالأرض بعد تحطيم قيودها، في حركة دائريّة من عمق المكان وإليه، المكان الّذي ينسرب في وجدان شمس الدّين:

"هوَ القلبُ أم غابةٌ منْ دخانِ القرى؟

قالَ لي صاحبي:

نشأنا معًا

وضحكْنا معًا

[1] - علي مهدي زيتون، المنهجُ الثّقافيّ ونظريّةُ الكشف، ص15.

وشربْنَا معًا وحلَ أقدامِنا

فهلْ أنتَ مثلي غدًا ميّتٌ في المدينةِ؟

قُلْتُ هذا اتّجاهي...

جنوبًا /جنوبًا /جنوبًا[1]"

يبرزُ التّوتّر، في الأسطرِ السّالفةِ، بينَ مبدأ الرّغبة في التّجذّرِ بأرض الجنوبِ المتّسقِ بالذّاكرةِ والوجدان، وبينَ الواقعِ الطّارئ الّذي خلّفَتْ متغيّراتُهُ الدّخيلة تجاذبًا حادًّا في الوعي، مرّده إلى انشطار العالم المرجعيّ إلى واقعيْنِ متقاطبيْنِ بحدّة، اصطرَعتْ على إثرهما أنا الشّاعر، ليأتيَ الاستفهام " هوَ القلب ...أمْ حفنةٌ من دخانِ القرى؟ "مجسّدًا ذاكَ الصّراعَ بثنائيّاته الجزئيّةِ التّعارضيّةِ :الاستقرار /الضّياع، التّجذّر /الانسلاخ، الحضور /الغياب، الأمن /الخوف، الصّمود /الهزيمة، المواجهة /الفرار... الصّراع الّذي لن يصلَ إلى السّلب المطلق للأرض، على الرّغم من أنَّ جماليّتها أمسَتْ دخانًا هباءً، وذلكَ لأنَّ أصلها لا يزال قائمًا مقرونًا بالوعي. وإنَّ الإرهاصاتِ التّاريخيّة الّتي ألمّتْ بالجنوب اللّبناني بعد فلسطين، في السّبعينيّات، أُرفِقَتْ بإرهاصات ثقافيّة أتَتْ محصّلة التّحوّل المتزامن والمتنامي ضمن آليّات تفكير شمس الدّين الّذي وعى الواقع، وأدركَ خطورة تعالي أنا العدوّ، فأتى الرّفض خطوة تمرّدٍ تُشعلُ الصّراع الضّدّيّ بين الزّمن الإسرائيليّ والزّمن الفلسطينيّ العربيّ، ضمن نطاقٍ مكانيٍّ ملتهبٍ تتمزّق حدوده الطّبيعيّة لصالح العدوّ السّاعي للإطاحة بالهويّة العربيّة ... تلك الإرهاصات الجيوسياسيّة كانَتْ بداية تحوّلٍ لم يَغُصْ عميقًا إلى حدِّ قتل الحُلم، واغتيال الأمل، بل ينطوي على الصّدمةِ الحاصلة بينَ الذّكرى المثخنة بالحبّ (الأمن) العلّة الأولى للشّعر الّذي ينهضُ بالحبّ المودي إلى المطلق إلى الله، فما الله إلّا الحبّ، وبينَ الدّخان (الهباء) الزّوال والدّمار. فالبداية هي انطلاقة التّحوّلات الّتي تجمع دومًا بينَ السّقوط والقيامة، بينَ الخطيئة والتّمرّد، والّتي ستعقبها نهاية سيحينُ فيها مخاض الولادة والانبعاث ثانية، وهو ما يؤكّده التّكرار" جنوبًا" الّذي يكشف عن مدى إصرار ذات الشّاعر على الانتماء الجنوبيّ المطلق، فأتت اللغّة لتسندَ ذاك الهمّ الوجوديّ خشية الضّياع، وتدخلُ دائرة الصّراع من بوّابة الرّؤية اللّغويّة بطبيعتها الوظيفيّةِ .

وإنّ ضياعَ أنا الشّاعر والجنوبيّين لا يتحقّق بالمطلق على وقع هول اللّاوعي، وإنَّ الحبّ لا ينتصرُ لديهم أيضًا، بل يسود التّذبذب بين الضّياع والحبِّ لصالح دلالة العقم الموازي الاعتداء والقمع والقتل والتّشريد وطمس الهويّة والانتماء. ويتصاعد التباس الحبّ والرّغبة بالواقع، ويمتزج الحلم بهمجيّة العدوّ الإسرائيليّ، الأمر الّذي يوازي تحويل مجازيّة أرض الجنوب من صيغة الكناية الإيجابيّة " شربْنا معًا وحل أقدامنا" المجسّدة رغبة الالتصاق بالأرض والتّماهي مع ترابها...إلى الكناية السّلبيّة الدّالّة على اختناق الفضاء المكانيّ إلى حدِّ الانفصال الّذي تؤكّدهُ كلمة " ميّتٌ" في الاستفهام الّذي لا يضمر الإنكار "

[1] - محمّد علي شمس الدّين، الأعمال الشّعريّة (غيم لأحلام الملك المخلوع "1977")، مصدر سابق، ص 97.

فهل أنتَ مثلي غدًا ميّتٌ في المدينة؟" فعبر هذا الاستفهام ينقطعُ تتابع الجمل الفعليّة السّرديّة الكاشفة عن أحوال الماضي غير المأزوم، زمن السّلم المقرون بالحبّ والاستقرار الجمعيّ "نشأنا معًا، وضحكنا معًا، وشربنا معًا وحلّ أقدامنا"، فيما يشبه ردّ العجز الدّلاليّ على أبعاد الاستفهام الّذي استُهلَّتْ به القصيدة" أم حفنة من دخان القرى؟ "وهنا تتوازى النّتيجة بين الاستفهامين بوقعها على أنا الشّاعر، إذ تعقبها شعريّة القبح الموازي رمزيًّا بين ممارسات عنف العدوّ الإسرائيليّ ودمامة واقع المدينة المنفى .وهنا يُطلعنا الشّاعر على صورة الرّاحلين عن الجنوب:

"محبّونَ كانوا هنا ثمَّ غابوا

ولم يتركوا غير أسمائهم

جلسْنَا نعُدُّ احتمالات أقدامهم في المدينةِ

وسرْنَا معًا

وجدْنَا الحوانيْتَ تمشي إلى فندقٍ في الضّواحي

وجدْنَا الضّواحي توابيْتَ للنّائميْنَ

وفوقَ الثّريّاتِ لحم طريّ[1]"

تُحيلُنا الأسطر الشّعريّة إلى علاقة الشّاعر المُلتبسة بالمدينةِ الّتي تُحاصرُ الطّبيعة الفطريّة (القرى)، فتأتي رؤيتُه بمثابةِ مكاشفةٍ لتحكيم الضّمير الإنسانيّ لمساءلةِ الآخر الّذي أعدمَ تجلّيات الحسّ الإنسانيّ مع سيرورةِ التّحوّل الواقعيّ على وقع دلالة "المدينةِ " الّتي تُسقط عُنفها على القرية بوصفها رمزًا يُناقضُ ثقافةَ الطّبيعةِ الفطريّة البريئة بدلالته المنطوية على القسوة، بعيدًا من محمول" المدينة" التّاريخيّ والحضاريّ المُكثّف في الوعي واللّاوعي العربيّ _ الإسلاميّ، المرتبط بالنّهضة والتّقدّم الفكريّ والتّحوّل الثّقافيّ الحداثيّ المؤُسّس على فاعليّة العقل العربيّ وحضوره، بعيدًا من الحماسة والعاطفة والتّعصّب، وذلكَ بدءًا من العصر الإسلاميّ وصولًا إلى العبّاسيّ. لقد أقصى شمس الدّين في قصيدته" دخان القرى" مدلول المدينة بمحمولها العربيّ الإيجابيّ الّذي حضر مرارًا في غير قصيدة، ولم تأتِ رؤيته المعادية المدينة منبنيةً على ما استُشفَّ منَ الموروث الغربيّ" الأرض الخراب" لإليوت، القصيدة الّتي أحدَثَتْ ثورةً جدليّةً تحديدًا بمضمونها المُشكّل موقفًا معاديًا للمدينة، مصدر القلق والمستقبل المُبهم، ومنعطفًا في الشّعر الغربيّ الحديث، تلكَ المدينة الّتي اقتُبستْ بأبعادها المنتمية للثّقافة الغربيّة لِتُدرَجَ في قصائد بعضِ الشّعراءِ العربِ المحدثيْنَ الّذين تأثّروا بالثّقافة الغربيّة إلى حدِّ التّطبّع. أمَّا شمس الدّين فقد أنتجَ رمزيّة المدينةِ بالاستناد إلى

[1] - محمّد علي شمس الدّين، الأعمال الشّعريّة (غيم لأحلام الملك المخلوع "1977")، مصدر سابق، ص100.

تجربةٍ خَبُرَتْ واقعَ المدينةِ القهر غير الحياديّ المنطوي على شعائر الانسلاخ، فقدِ اقترنَ زمانُها ومكانُها بالتّسلّط والجمود والهامشيّة وانعدام النّفع، وهو ما يساوي الموت الّذي تعالى على واقع الأنا الجمعيّة الجنوبيّة، وفعلَ بها ما يحقّق الهزيمة.. وقد غاصَ الموتُ في جرحِ المغرّبين الّذينَ أسهمَ اختلالُ زمنِهم، بفعل تعالي أنا المضطهد المحتلّ، في إبرازِ فاعليّة التّضاد بينَ ما ينطوي عليه وجدان الشّاعر من تعلّقٍ مطلق بمكانه الجغرافيّ المشرّع على جغرافيّة الحياة، على عالم الآخرين الّذين عشق الشّاعرُ وآنس وسامر، والمفتوح على الوعي الفرديّ الّذي يناقض الوعي الجمعيّ الملتبس، وبينَ الواقع المرفوض الّذي شكّلَ بديلًا ببعدٍ سرابيّ أجهدَ القلبَ" غابةٌ من دخان القرى؟ "بعدَ اختناق الفضاء الزّمانيّ والمكانيّ، فالمكان أُحيلَ إلى فوضى جدّتْ للإطاحةِ بالكيانِ، وفرضَتْ حدَّةَ التّقاطب مع الذّات قبلَ كلّ شيء.

يواجه الشّاعر في قصيدته واقعيْنِ مرجعيّين للقبح مستجدّيْنِ ليس عبر الفرار منهما، أو استبدالهما بآخر على مستوى الوهم عبر التّخييل التّعويضيّ، بل بالتّحديق فيهما لكشف نقيضهما في داخله، فالّذينَ هُجّروا إلى المدينة حطّمتهم أكثر بعد نفيهم إلى ضواحيها إلى حدِّ التّشييء، لأنَّ عمقها صاخبٌ لا يحوي البسطاء، فقد صيّرتهم هامشيّين يتساوى فضاؤهم الزّمانيّ والمكانيّ المأزوم والمُعطّل في القرى وفي المدينة .منْ هُنا انطلقتْ قصيدة شمس الدّين من المدار المغلق، في لحظتها، من واقع القمع في محاولةٍ لنفض القبح عنها، والانسلاخ عنه، والتّحرّر من وطأته لتجاوزه عبر التّحديقِ فيه بوعي، ولجعله موضوعًا لتأمّلاتها على نحوٍ يتحوّل بالقبح والمشاهدِ الدّمويّة والسّوداويّة إلى موضوعٍ للقصائد، ومرتكزٍ أساسيٍّ من مرتكزات الرّؤية، لأنّه يفاقمُ الهمّ الوجوديّ والمصيريّ الّذي هو من القضايا الإنسانيّة الكبرى، في سياق القمع الّذي يطال الحضور الإنسانيّ على وقع القتل والعنف والاضطراب .

تأتي قصيدة شمس الدّين إضافةً نوعيّةً في شعريّة القبح، لأنّها تواجه الواقع القمعيّ عبر مقاومته بنقضه، ومناوشته باقتناصه في مجازات وصور تضع هذا الواقع إزاء قبحه في وضعيّة مساءلة، إذ لم تبقَ أنا الشّاعر متعالية، فقد تمَّ الهبوط بنموذجها وأهل القرى الجنوبيّة إلى قاع المدينة القمعيّ، فانسرب وعي الشّاعر ليجد ذاكَ الواقع يُطبقُ على البراءة القرويّةِ، بعد أن ضاعتِ الخطى فيه، بين الاحتمالات الّتي لا تنحو إلّا في مسارب السّلب، عند الهامشيّة الملازمة الضّواحي حيثُ الفضاء، الّذي يتحرّك فيه اللّاجيء إليه وحيدًا، محور الحرمان والفقر والإقصاء والوجوه الجديدة الباردة والغريبة، وفتور الحبّ والتّلاقي وانعدام الأمن. لقد حاور شمس الدّين، في قصيدته، الحبّ والكره والعذاب والألم والحرّيّة والانبعاث ...ووظّف رمز المدينةِ الّذي يعكس الثّنائيّة الضّدّيّة (الحياة /الموت) الّتي شكّلَتْ البِنية الكلّيّة لدواوينه، مع ما يتوالدُ منها من ثنائيّات جزئيّة متقاطبة، تستحضرُ المهيمنة منها نقيضتها، حتّى لو كانت في حضرة الغياب، وكانت توحي بدلالات الإيمان بقربِ المخاض والقيامة، بفعل إدراك معنى الحياة، إذ لا سبيل للخلاص إلّا بالموتِ .

ب _**تمايزُ علاماتِ الهويّةِ وأولويّةِ السّؤالِ في شعريّة شمس الدّين :**

إنَّ رؤية شمس الدّين بمكوّناتها (الثّقافة والهموم والاهتمامات والقناعات) كشفيّة، تعكس أدبيّة النّصّ الّتي تتملّك المتلقّي بعوالمها المرغوبة المتعالية فيها أنا شمس الدّين ليكون

فاعلًا بعلامات هويّة استثنائيّة، يُدخلُ الآخريْنَ في عالمه، ويُغرقهم في تفاصيل أناه وعلاقتها بالشّعر. ولكن تلكَ الرّؤية غير مستقرّة أو يقينيّة، لأنَّ مكوّناتها رهينة التّغيّرات الواقعيّة (الزّمنيّة والمكانيّة)، والأحوال النّفسيّة، والتّنامي الفكريّ والمعرفيّ الّذي يقوّي حضور العقل، ويخصّب الخيال، ويغيّر القناعات أو يعدّلها فيشرّع للرّؤية آفاقًا أعمق، لذا يتمرّدُ الوعي وينقد خطابَهُ الفكريّ دومًا، ليؤسّس وعيًا تجاوزيًّا برؤية متنامية متحوّلة ديناميكيًّا تكشف عن أفق غير متناهٍ موازٍ لعمق تجربة شمس الدّين الشّعريّة الّتي تجعلُ القصيدة لا تنتهي، لأنَّ تلكَ التّجربة تطلّعيّة طليعيّة متقدّمة هي وليدة الإبحار في ضوء العقل ونظامه إلى حدّ فوضى الخيال المرغوبة الّتي تتشظّى إيحاءاتٍ تنعقد عليها لحظةُ التّحوّل الّذي يتجاوز" حدود (الحيرة) وأحوال المقيمِ فيها:

"رجلٌ

يسكنُ في أرض

تُدعى" :أرضُ الحيرةِ"

يُغمضُ عينيه على الأشياء

فيُبصرُ كُنْه الأشياء...

رجلٌ

يسكُنُ في وحدتِهِ...

يرسمُ أشخاصًا من ورقٍ

أو

منْ قلقٍ وسؤال..."[1]

تكتنفُ الأسطرُ أعلاه وتضمرُ التّوقّعَ السّلبيَّ الّذي يرْهن ذات الشّاعر، ذات" رجل " نكرة، ويقحمُها في قتامةِ الغربةِ الّتي تتجاذبُها بفعلِ الحيرةِ والتّيهِ المفطورِ عليهما العالمُ المرجعيّ" _أرض الحيرة _" لذا يأتي تماهي تلكَ الذّات مع التّيه قدرًا ومُحصّلةَ وعي العبثيّة والعجز فيها أمام كُنْه الخلق والوجود ويشكّل التّماهي تدميرًا، غير متعمّدٍ، لإمكانيّةِ التّأسيس لترابطاتٍ وجدانيّةٍ مع العالم المرجعيّ، تحيا في الذّاكرة، لأنَّ مهمّةَ تلكَ الذّات البحثُ عنِ الحقيقةِ المساندة في تشكيل تحوّلاتِ ذاكَ العالم، على مستوياتِ الرّبطِ المفاجئ بينَ العناصرِ المتباعدةِ وفق ثنائيّة (المحسوس /المجرّد)، حينَ يغمضُ الشّاعرُ" عينيه على الأشياء" في حركةٍ دؤوبةٍ تستمدُّ صيرورتها من الفعل(يُغمضُ)، حركةٍ لا تُحدِثُ قطيعةً مع ماديّة العالم المرجعيّ الّذي يُلامسُ الحسَّ، بل تُسهمُ في تدميرِ الحواجز أمام المدركاتِ الماورائيّة الّتي لا تُسقطُ سلطةَ العقل الّذي يتمرّدُ فيه الوعي على الإدراك المادّيّ المحدود،

[1] -محمّد علي شمس الدّين، الأعمال الشّعريّة (الغيوم الّتي في الضّواحي "2006")، بيروت، المؤسّسة العربيّة للدّراساتِ والنّشر، ط1،ج2، 2009، ص439.

ويُثوّرُ الشّاعرَ ليقتحم اللّاوعي برؤيته، مع الإبقاء على ما يصلُهُ بالوعي، ويعصفُ بكلِّ شيء" فيُبصر كُنْه الأشياء "ماهيتها، وهنا ترقى درجات أناه لتمسي بمصاف النّبوّة الّتي تغرِّبُ الأنا أكثرَ لأنّها تُدرك اختلافها عن الأنا الجمعيّة الغائرة في الالتباس، وبفعل المسؤوليّة الّتي تُلقى على عاتقها " رجلٌ يسكنُ في وحدته"، مسؤوليّة تعميم التّحوّل الحاصل لديها، بعدَ تجاوز وعيها لينجلي شيءٌ منَ الحقيقةِ إنَّ النّبوّة مسؤوليّة مرهِقة قد تنتصر للحقيقة، وقد تبوء بالفشل، لكنّها لا تستسلم. وبفعل التّحوّل الّذي هو من ضرورات البحث عن الحقيقة اليقين، يعصف التّيه بتلك الذّات، مجدّدًا ، الّتي تلجأُ إلى الجمع المفاجئ بينَ المتباعدات، عبرَ المجاز الّذي ينقُضُ المسلّمات الإدراكيّةِ، ويقمعُ ما بانَ من الحقيقةِ الّتي يتوجّب أن تبقى أسئلة بلا إجابات، أسئلة مقرونة بالقلق، تلكَ الحقيقة الّتي تعيدُ للشّاعر (الإنسان _ مطلق رجل) أُلفتَهُ مع الكون، لذا يرسم الشّاعرُ" أشخاصًا منْ ورقٍ أو قلق أو سؤال"، ويوحي إليه الشّعر الحداثيّ" أن كلَّ شيء يبدأ، حينَ يخيّلُ إليه أنَّ كلَّ شيء قد انتهى، وقد يكون هذا الإحساس ببدء العيشِ في كلِّ حين وليد الكشفِ عن العتمةِ الّتي تحيط بالإنسان في صلته بالوجود وبالآخر وبنفسه وحقيقة ذاته الكبرى"[1].

إنَّ الانتقالَ منْ حالٍ إلى حالٍ متعاقبة يكشفُ عن اجتماعِ النّقائضِ في تلكَ الذّات، وهو ما يشكّلُ صدمةً بفعلِ مخالفةِ توقّع الإمعان في الضّياع والسّلبيّة أكثر، إذ تنقلبُ الصّورةُ على نفسِها، ويتحوّلُ النّقيضُ إلى نقيضه، بعد انفتاح الأفق على التّراسل بين المحسوسات، وما يترتّب عنها من معنويّات، والمجرّدات الّتي تربو عليها جميعها، وهنا تبحثُ أنا الشّاعر عن ولادة حداثيّة جديدة عبر صراع النّقائض الّذي يُضمرُ حتميّة المجاوزة الذّاتيّة في العالمِ بالعالمِ، بعدَ انتصارِ ثورةِ الذّات على أبنيتها الفكريّة الّتي تتجاوزها، مع كلّ نموّ، لتغدو تجلّياتُها في القصيدة -الثّورة البيضاء، ثورة محمّد علي شمس الدّين - المكتنفة المعنى المتخطّي الوعي التّقليديّ المكرور، والّذي لا تقفُ النّفسُ عندَ تمام مقصوده، لأنّ ذلكَ لا يبقي لها شوقًا إليه، وهنا يتوازى المسار بين الرّؤية واللّغة، وبينهما وبين العالم المرجعيّ لتسقطَ الحدودُ لصالح الهمّ الوجوديّ، والأسئلة الكبرى. وعليه تنقلب الحيرة إلى شيء من الصّحوة بعد كشف الحجب:

"وأنا أعرف أنَّ صديقي

مسّته النّعمة في الخمسين

فاستيقظَ منْ غفوته مذهولًا

ورأى

ما ليسَ يُرى...

كان الرّجلُ المُلقى في حيرته

[1] -أدونيس، زمن الشّعر، بيروت، دار العودة، ط2، 1978 ،

يُشبهني..."[1]

إنَّ التّراكم المعرفيّ والثّقافيّ لدى أنا الشّاعر، وعمق التّجربة، صيّراها رائيّةً متبصّرة مع فرط القلق المتوثّب الّذي ارتقى بها إلى المستوى الكشفيّ المتجلّي بالنّعمة الّتي نزلَت عليها لتكون سبيل الصّحوة على وقع التّصوّف والفيوضات العرفانيّة أعلى درجات التّطهّر النّفسيّ، والمحقّقة الخلاص من العالم المرجعيّ التّرابيّ المادّيّ بثقله الفتّاك الّذي يُطبقُ على القيم الأخلاقيّة، ويُسقِطُ المبادئ الإنسانيّة. تلك الصّحوة الّتي شكّلَتْ إشراقةً روحيّةً قادَتِ الشّاعر إلى الاقتراب من بلوغ الكمال_ الّذي لن يكون _بعد أن" استيقظ من غفوته مذهولًا"، وأدرك تفاهة المادّيات، وانكشفَ له الغيب الّذي لا يُحدُّ، بل يلامسُ عمق الحقيقة الّتي تصبحُ معها فكرة الموت مستساغة أكثر من الحياة، بوصفها مرحلة عبور توطّد الصّلة بالإله المطلق ليحصل التّماهي، بحيث تتجرّد الذّات من ذاتيّتها المادّيّة لترقى وتفنى في محبوبها... وهنا تتجلّى صور الشّعريّة الجديدة الجاذبة والمستفزّة لدى شمس الدّين، وهو القائل في وصف شعر أحد أصدقائه" :هذا شعر غير شعريّ. شعر غير أدبيّ. جديد وجميل . مستفزّ ووقح. كلّ جديد وقح .أعني أنّه حقيقيّ ويأتي من خارج سياق الأدب"، وفي ذلكَ إشارة إلى وجوب التّمتّع بالفرادة والخصوصيّة اللّتين تتخطّيان السّمات المختزنة من تجارب كبار الأدباء، ولا تدخل في خضمّ التباسات الغموض، أو الغربة النّخبوية الّتي تفرض نفورًا ومسافةً بين نصّ الشّاعر والمتلقّي بشتّى مستوياته الثّقافيّة، بل تقحم الأخير في المنشعبات الدّلاليّة، وما ينكشفُ من تجلّيات روحيّة، على وقع فرادة الرّؤية الّتي هي أعمقُ من غاية جماليّة تستلُّ المؤثّرات من الخصوصيّة التّركيبيّة والسّياقيّة للعبارات والانزياحات والرّموز الّتي يلتجئ إليها شمس الدّين ليقول قلقه، تزامنًا مع عالمه الدّاخليّ (الفكريّ والوجدانيّ) المتحرّك إلى حدّ العصف خارج الإرادة، وهو ما يُلزم الشّاعر بنقد خطابه دومًا بحثًا عن الحداثة فيه، بما يتوافق ومقولة أوكتافيو باث" لن يكون الزّمن حداثيًّا إلّا إذا كان زمنًا نقديًّا".

وعليه، إنّ تجربة شمس الدّين الشّعريّة تخطّت المحاولات إلى الجسارة الكتابيّة بروحيّة المغامرة والجرأة، الجسارة الكتابيّة الّتي تنطق بالضّوء قرين المغزى الّذي لا ينتفي، الّذي ينسرب من أنا الشّاعر غير العاديّة الّتي ارتقت روحيًا إلى درجات العرفان على الرّغم من كثافة الظّلمة المحيطة بواقعها، فخلو الرّؤية من الضّوء والمغزى إشارة إلى العجز والاستسلام والارتهان إلى التّشييء، بمعزل عن الحضور الإنسانيّ الفاعل والنّافع. لذا لا يمكن الكشفُ عن المغزى الختاميّ في قصيدة شمس الدّين، لأنّها تنفتح على الزّمن الحضاريّ، غير المؤطّر، المُتجلّي في علاقته بالصّورة المجسّدة باللّغة، أي الألفاظ الّتي تتركّب من مجموعها صورةُ النّصّ الشّعريّ الكبرى، بناءً على رؤية شمس الدّين الّتي تطرحُ الكثير من الأسئلة الحداثيّة القلقة المسهمة في تأسيس زمن الوعي الآتي بعد التّخلّي عن الزّمن القائم وتدميره، وإعادة خلقه وإيجاده، أسئلة تُطرحُ على الثّقافة العربيّة على ضوء أزماتها ورجعيّتها، من دون الاستحصال على إجابات، لأنّ الإجابات قيود ومقتلة. ولقد وجد

[1] -محمّد علي شمس الدّين، الأعمال الشّعريّة (الغيوم الّتي في الضّواحي "2006")، مصدر سابق، ص 444-443.

المستشرق الإسبانيّ بيدرو مونتابث أنّ " الشّعر العربيّ يحتاجُ حتمًا إلى المخاطرة، إلى المحاولة، إلى التّجديد، إلى الابتعاد عن التّكرار، إلى هؤلاء التّجريبيّين المبتعدين في ملاصقة الكشف الحديث" [1]. وفي هذا السّياق، فرض محمّد علي شمس الدّين نفسه حالًا تصدّرتِ المشهد الشّعريّ العربيّ، منذ السّبعينيّات، بين مجايليه من الشّعراء، بفعل مخاطرته الجامحة في الشّعر الّذي يجدُهُ سفرًا متواصلًا ودؤوبًا في التّجريب على وقع الوزن الّذي يشكّلُ هُويّةً وانتماءً لقصيدة التّفعيلة. وإنَّ نصّ شمس الدّين الشّعريّ لم يكن قائمًا على توظيف عناصر الصّورة الشّعريّة وتنسيقها وفاق مقتضيات شعوريّة مرحليّة تحتّم ولادتها، بل كانت نتاجًا وثيق الارتباط بالمخيّلة الخصيبة القوّة المنتجة للنّصّ، والمساندة في الإطلالة على مفاهيم العصرنة .

إنّ خصوصيّة شعريّة شمس الدّين تتناقضُ ونظريّة إليوت حول" انعدامِ الهويّةِ والتّجرُّدِ"، والّتي يشرحها صاحبها من خلالِ دراسةِ علاقةِ الشّاعرِ بالماضي أوّلًا، وثانيًا علاقة القصيدة بمؤلّفها. ووفقًا لرأيه فإنّ الماضي لم يمُتْ أبدًا، بل يعيشُ في الوقتِ الحاضر، ويتعذّرُ على الشّاعرِ أو الفنّانِ تحقيقُ المعنى الكامل وحدَهُ، لذا عليه الحفاظُ على عمله عبر التزام الموضوعيّة بنزع الشّخصيّةِ وحضورها ...من المؤكّد استحالة تكريس الشّاعر فرادةً واستثنائيّة في حال الانسلاخ عن الماضي المرتكَزِ الموروثيّ المُكثَّفِ، تُحَاورُ معطياتُهُ بما يصقلُ الثّقافةَ ويشرّعُ نطاقاتِها لتكونَ فاعلةً في مرتكزاتِ رؤيةِ الشّاعرِ التّجاوزيّة :الهمومِ والاهتمامات والقناعات، و"إنَّ تجاوز الماضي لا يعني تجاوزَه على الإطلاق، وإنّما يعني تجاوزًا لأشكالِه ومواقفِه ومفهوماتِه وقيمِه الّتي نشأت كتعبيرٍ تاريخيّ ...وهكذا يأخذُ الشّاعرُ العربيّ الجديد من أحداث الماضي بتلكَ الّتي تعانقُ المستقبلَ فيما كانَتْ تُعانقُ حاضرَهَا وتعبّرُ عنه"[2] ولكن كيفَ تُعدَمُ هويّةُ الشّاعرِ قرينةُ رؤيتِهِ لصالحِ الهويّةِ المؤطّرةِ بالماضي وفق قاعدةِ النّسقِ والتّنميطِ المُعطِّلَيْنِ عمليّةَ اكتشاف العالم بالارتكاز إلى الفكر المبدع المؤسَّسِ على تملّك ثقافة العصر؟ وكيفَ يتمُّ الإجهازُ على حاجات أنا الشّاعر لتكونَ فاعلة، انطلاقًا منَ المخزون المعرفيّ المتراكم بشكل مطّرد؟ إنَّ إعدامَ هويّةِ الشّاعرِ هوَ إقصاءٌ لأرقِهِ بفعلِ ما يعيشُ منْ " قلقِ الوضعيَّةِ الّتي تحتلُّها ثقافةُ الأمَّةِ" [3]، ومحاولةٌ لقتلِ الزّمنِ، والوقوفِ ضدّ صيرورةِ الحياةِ وتطوُّرِها.

وإذا كانت رؤيةُ الشّاعر تنبثقُ حصرًا منْ ضمنِ آليّاتِ تلكَ الثّقافة الماضويّة، فهذا يكرّسُ عجزَ تلكَ الثّقافةِ معَ الرّؤيةِ، الّتي تصبحُ مسطّحةً سلفًا، عن الكشفِ عن عمقٍ فريدٍ منْ أعماقِ العالمِ المرجعيّ، وتعذّرَ تجاوز وعي أنا الشّاعر طرائقَ الإدراكِ السّالفةِ، وطرحِ أسئلةٍ حداثيَّةٍ كبرى على التّراث فتُحرجه. وهنا يكمن التّقاطع مع" نظريّة الانعكاس الّتي ترى أنَّ الأدبَ انعكاسٌ للعالم المرجعيّ، ونظريّة الانكسار الّتي ترى أنَّه تعديلٌ يُجرى على

---

[1] -بيدرو مارتنيز مونتابث ، مجلّة (المنارة) الإسبانيّة، تعريب النّصّ (ناديا ظافر شعبان)، مجلّد 10 ،ص7.

[2] - مجلّة الآداب، مجلة شهرية تُعنى بشؤون الفكر، تصدر عن دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، العدد6،حزيران، السنة الثانية، 1954، ص23.

[3] -علي مهدي زيتون، المنهجُ الثّقافيّ ونظريّةُ الكشف، ص246.

العالم المرجعيّ"[1] . ففي النّظريّاتِ الثّلاث تتساوى رؤيةُ الشّاعرِ مع ما يراهُ عامّةُ النّاسِ، فتُطمسُ الفرادةُ والخصوصيّةُ. وإذا كانَتْ رؤيةُ اللّغة إلى العالم سلفيّة قائمة على ما تكنزُ من توالي الثّقافات، فإنَّ رؤيةَ الشّاعرِ تُحدثُ خرقًا في تلكَ الرّؤيةِ إذ تُقاومُ سلطةَ اللّغةِ القمعيّةِ، الماضويّةِ العاجزة منهجيًّا عن التّعبيرِ عن رؤيةِ الشّاعرِ، عبرَ بناء نظامٍ سيمائيٍّ يُشكّلُ شعريَّةً جديدةً، فيها لجوءٌ إلى الرّموزِ والصّورِ البيانيّةِ بمحمولها الدّلاليّ المواكبِ التّنامي الثّقافيّ لدى الشّاعر الّذي كانَهُ شمسُ الدّين في تجربَتِهِ المحاولةِ تأصيلَ المقوّماتِ الإبداعيّةِ والفنّيّةِ لشعريّتِهِ المقاومة المنطلقةِ في فضاء رؤيويّ غير منمّطٍ، مُتخطّيةً حركةِ الشّعر العربيّ الحديث والمعاصر، بعدَ تملّك ثقافة العصر واستيعابها. تلكَ الثّقافة خوّلت شمس الدّين إنتاجَ رؤيةٍ متخطّيةٍ المأزقَ الإبداعيَّ الّذي تعانيه ثقافتنا.

خاتمة:

منَ المؤكّد أنَّ التّماهي مع النّظائر لا يحقّقُ ديمومةً شعريّةً، فالبحثُ عن النّظائر، والاطّلاع عليها خطوة سليمة للاستزادة وتوسيع مدارك أنا الشّاعر في سياق الآداء التّجريبيّ الّذي لن يرقى إلى الجسارة الكتابيّة المرتكزة على تكوّن الوعي المُحدث إلّا بإثارة الجدل مع النّظائر، وهو ما يتوافق ومقولة إليوت" على الشّاعر أن يكون سارقًا، وليسَ مقلّدًا"، ومفاد السّرقة تملّك النّظائر للتّمرّد عليها إلى درجة الانقطاع عنها، وهو ما يعكس المقدرة النّقديّة العالية لتلك الأنا القادرة على التّجاوز إلى حدّ الكشف عمّا لم تدركه النّظائرُ، وهنا تُقاسُ فاعليّة الأنا وحضورها الشّعريّ. وعليه، لم يتبرّأ شمس الدّين الشّاعر الوجوديّ من الموروث العربيّ والإسلاميّ الثّقافيّ، بحداثات الماضي والحديث والمعاصر، بل انحاز إليه عبر محاورته، وإخراجه بروحيّة العصر مع محمولٍ حداثيٍّ مُكثّف فيه الزّمن ليكونَ الإطار المرجعيّ الثّقافيّ الرّاعي القصيدة، من دونِ تقييدها، وأتت هذه المُحصّلة بعدَ أنْ خاضَ الشّاعرُ في التّاريخ ووقائعه المفجعة، ورموزه التّاريخيّة والدّينيّة؛ إلى جانب محاورة حداثات الفكر الأوروبيّ (الحديث المعاصر)، لتختمرَ تأمّلاته وينتجها على وقع الفضاء الكونيّ الخاصّ به والمفتوح، وليفرض غوايتها الشّعريّة المتمايزة عن الغواية الأوروبّيّة المنطوية عليها الحداثة الشّعريّة الغربيّة. ولقد تأرجح الخيالُ في سياقات الرّموز، الّتي التجأ إليها الشّاعر، بين الجنون والتّعقّل الّذي لم يسقط في دورة النّفي أو السّجن، على الرّغم من ارتحال الشّاعر إلى الأحلام ملاذًا من الزّمن وإليه، ارتحال يبدأ بالتّحرّر من أسر الواقع (عالم الاغتراب) بماضيه وحاضره المأزومين بقسوة الحقائق، إلى المستقبل الأفق المائج بالحركة والانطلاق على وقع حال الوعي الّذي يتوسّط ما بين الشّعور واللّاشعور، المستقبل الأمل الآتي الّذي يتوجّب بقاؤه في دائرة الإمكان، ففي حال تحقّقه يتهشّم تخيّل الشّاعر، وتذبلُ أحلامه وتهرم وتُهزم، وفي ذلكَ تنتفي شروط بقاء الشّاعر حيًّا في شعره.

إنَّ رؤيةَ شمسِ الدّيْنِ بمكوّناتها (الثّقافة، والهموم، والاهتمامات، والقناعات) تؤسّسُ لما بعد بعد الحداثةِ، بعدَ أنْ ألقتِ الحداثةُ الغربيّة وما بعدها الظّلال على الثّقافةِ العربيّة الّتي لم يكن لها إسهامات تُضيف إلى الثّقافة العالميّة، وعليه تأتي هذه الرّؤية محاولةً لدخولِ العربِ دائرةَ التّاريخِ ثانيةً من بوّابة فكريّة ثقافيّةٍ، وهوَ ما دعا إليه ضمنيًّا الشّاعرُ المكسيكيُّ

[1] -م.ن، ص9.

"أوكتافيو باث " الّذي رأى أنَّ على العالم العربيّ البحثَ عن مكان له في العالم الحديث؛ فتجربة شمس الدّين لا تنتمي انتماءً صافيًا مُطلقًا إلى مدرسةٍ أدبيّةٍ محدّدةٍ، بل لها نظامها الرّؤيويّ الفريد الّذي يخوّلها إرساء أسسِ المدرسة الأدبيّة الشّعريّة المستقبليّة المؤهّلة للنّهوض بالحياةِ الثّقافيّة العربيّة ثانيةً، وهنا يحقُّ التّساؤل: هل ستواكب تلك التّجربة والحدْس الشّعريّ الفريد حركةٌ نقديّةٌ جادّةٌ ستبلور أسس تلك المدرسة؟ وهل يمكن لجيل الشّعراء الشّباب العرب تطويرَ أسسِ تلكَ المدرسة، عبر طرحِ أسئلةٍ كبرى على ثقافتنا تحرجها، وتشكّلُ تلكَ الحراجة امتدادًا للتّجاوز الّذي حقّقه شمس الدّين ضمن رؤيته المتفرّدة؟

قائمة المصادر والمراجع

أولاً/المصادر والمراجع:

1) أدونيس، زمن الشّعر، دار العودة، بيروت، ط2، **1978**
2) زراقط، عبدالمجيد، الحداثة في النّقد الأدبيّ المُعاصر ، دار الحرف العربيّ للطّباعةِ والنّشر والتّوزيع، بيروت، ط **1**، **1991**
3) زيتون، علي مهدي، المنهجُ الثّقافيّ ونظريّةُ الكشف ، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، سوريا، ط**1**، **2021**
4) شمسِ الدّين، محمّد علي، الأعمال الشّعريّة، المؤسّسة العربيّة للدّراساتِ والنّشر، بيروت،ط**1**، ج1-ج2، **2009** .

ثانيًا/المجلات والدوريات:

1) مجلّة الآداب، مجلة شهرية تُعنى بشؤون الفكر، تصدر عن دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، العدد6،حزيران، السنة الثانية، 1954.
2) مجلّة (المنارة) الإسبانيّة، تصدر عن مؤسسة الفكر العربي-تأسست عام 1970، أسسها: مونتابث، البروفيسور بيدرو مارتنيز، والبروفيسورة كارمن رويث برافو، تعريب النّصّ (ناديا ظافر شعبان)، مجلّد **10.** .

مجلة دراسات العلوم الاسلامية